

ابن خلدون مؤرخ الحضارة العربية الأستاذ عيسى محمود ناصر

(تتمة ما نشر في العدد الماضي)

الكلام على الفصلين الثالث والرابع

يمكن أن يقسم كلام ابن خلدون فيها أقساماً ثلاثة : الإقليم والبيئة الجغرافية والدين ؛ فلقد تتبع المجتمع البدوي والحضري وحكومته على اختلاف ظروفها ووسائل الارتزاق ولم تعد أحكامه في سياسة الممالك الاستبدادية التي ذكرها في مقدمته مطردة في عصرنا هذا إذ أصبحت طريقة الحكم في هذا العصر دستورية مبنية على الحكم النيابي الذي يؤيده الدستور ويدعو إليه سواء أكانت جمهورية أم ملكية ، على أن معدات الحروب وظواهر المدنية الحاضرة تختلف كثيراً عن حالتها السابقة

ومن رأى ابن خلدون أن هناك ثلاث ظواهر مستقلة عن المجتمع تؤثر فيه باستمرار هي : الإقليم والبيئة والجغرافية والدين ، وقد تأثر في نظرياته الجغرافية « ببطليموس » الجغرافي

أخرى وما كنا معنيين حتى نبحث رسولاً . وقد فعل القرآن الكريم ما يقرب من هذا مع الروم في حروبهم مع الفرس ، فإعراى لهم أنهم على كل حال أهل كتاب ، وبشر المسلمين بنصرهم في الآيات الأولى من سورة الروم « ألم ، غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفليون ، في بضع سنين ، لله الأمر من قبل ومن بعد ؛ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الحكيم »

أما قوله تعالى : « قلنا يا ذا القرنين » فلا يفيد إلا أن ذا القرنين كان في تلك الفتوحات وفيما يقصده منها مسيراً بأمر الله وقد ذكرنا أنه كان له في تلك الفتوحات مقاصد نبيلة ، وكل شيء يحصل في هذه الدنيا فبأمر الله وتقديره .

هيم الخصال الصغرى

اليوناني ، وبالإدريس الجغرافي العربي ، وهو في هذا يبين أن البيئة الجغرافية وسيلة إلى شرح الأقاليم المختلفة ، وأن درجات الحرارة المختلفة تؤثر في أجسام الناس وأخلاقهم ، ومن ثم في الحضارة ؛ فسواد لون سكان الجنوب يرجع إلى شدة الحر حيث الشمس محرقة دائماً ، وأما لون أهل الشمال فأبيض للسبب العكسي . أما الأقاليم المعتدلة فأجسامهم أقوى وأوفر توازناً في حين أن أهل الأقاليم المنحرفة مجردون عن الحضارة ، فهم همج لا يعرفون شريعة ولا حكومة ولا ديناً ، وأخلاقهم في غاية التناقض ، ولكنها بعيدة عن أن تكون مجتمعاً متحضراً . ويعلمنا التاريخ أن الحضارة لم توجد قط إلا في البلاد المعتدلة ، وأن درجة تكاملها تختلف بقربها أو بعدها عن الإقليمين المنحرفين ، ولهذا كان الإقليم الرابع الذي يشغل الوسط والذي يتمتع بجملة معتدلة ينعم دائماً بضروب الحضارة ، ففيه الحكومات والشرائع والأديان المنزلة والعلوم والفنون . ويضع ابن خلدون في ذلك الإقليم المعتدل : الشام والعراق ، فالشام مهد اليهودية والنصرانية ، والعراق كان بها الحضارة الآشورية ، ولكنه اعترضته صعوبة أن بلاد العرب مهد الإسلام ، وموطن العربية — ليست من الأقاليم المعتدلة ، ولكن البحر يحوطها من ثلاث جهات فأثرت رطوبته في الهواء ولطفت من قيعها القفر . ثم قال : إن بأخلاق أهل الجنوب خفة وطيشاً ، ولأنهم لا يعرفون السكينة ، ويقضون معظم حياتهم في اللهو والرقص ؛ فالحرارة مغلخلة للهواء والبخار زائدة في كيتته ، وقد اتفق ابن خلدون و « مونتسكيو » في أثر البرودة والحرارة في الأجسام ، ولكننا لا نرى في هذا العصر أثراً لمقاومة البرد والحر ، وهناك برهان قاطع على أن نظرية الإقليم كما بشرحها « أرسطو » وابن خلدون و « مونتسكيو » ليست معصومة من الزلل ؛ فإن خلدون يرى أن سكان الشام والعراق هم أكثر الشعوب فوزاً بذلك الامتياز ، و « مونتسكيو » يرى المثل الأعلى في أمم الشمال ، و « أرسطو » يرى الشعب اليوناني هو الذي بحث ذلك التقدم إلى باقي الشعوب

ثم تكلم ابن خلدون عن الروح البشرية والنبوة والكهانة ، وهو لا يعتبر الدين من عوامل الحضارة ، ولا يعلق على تأثيره فيها

ابن خلدون والنظر الحديث

يصف الأوربيون ابن خلدون بأنه « مونتسكيو » العرب . وقد ترجمت مقدمته ونظرياته إلى اللغات الحية . وفي منتصف القرن التاسع عشر عني النقد الأوربي بابن خلدون ونظرياته الاجتماعية عناية خاصة ، وكان أعجب ما في هذا الاستكشاف أن يظفر الغربيون في تراث هذا المفكر المسلم بكثير من النظريات الفلسفية والاجتماعية والاقتصادية التي لم يطررها البحث الغربي . وقد ردد « مكيافللي » المؤرخ السياسى الإيطالى الذى ظهر بعد وفاة ابن خلدون بأكثر من قرن كثيراً من نظرياته وآرائه كما رددتها « مونتسكيو » المشرع الفيلسوف الاجتماعى الفرنسى و « آدم سميث » الفيلسوف الاقتصادى وغيرهم ، ولابن خلدون فضل سبق في هذه الميادين السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفلسفة التاريخية .

ويعتبر كتاب « الأمير » « لمكيافللي » مقدمة ابن خلدون . على أن ابن خلدون أغزر مادة وأوسع أفقاً من « مكيافللي » ذلك لأن مؤرخنا اتخذ من المجتمع كله وما يعرض فيه من الظواهر مادة أساسية لدرسه معللاً لها على ضوء التاريخ . أما « مكيافللي » فيدرس الدولة فقط أو يدرس أنواعاً معينة من التاريخ اليونانى أو الرومانى القديم ، أو تاريخ إيطاليا في عصره ، أو يدرس شخصية الأمير أو الحاكم ؛ وهذه الدراسة المحددة تقابل الفصل الثالث من مقدمة ابن خلدون وإن كان ابن خلدون يفوق « مكيافللي » ، ويتتبع نظرية العصبية ونظرية أعمال الدولة وخواصها من الناحية الاجتماعية . ويمتاز « مكيافللي » من جهة أخرى بسلامة منطقته ودقة عرضه وتدليله وجمال أسلوبه ؛ وهو في فلسفته هذه وصم آراءه ونظرياته بالصرامة والقسوة والخبث حتى كانت في عصرنا الحاضر مضرب الثل للسياسة الفادرة التى لا ضمير لها ولا وازع فتفاضت عن الثل العليا للإنسانية والخلقية ؛ فالنفاق والشح ، والفضة ، والقسوة ، والإرهاب ، والختل ، ونكت اليهود ، وإهدار الإخلاص ، والصدقة ، والأمانة ، والدين والوفاء ، كل أولئك تقوم عليه هذه السياسة « المكيافللية » وهى عنوان السياسة العملية القوية الخاطفة التى نشاهدها في هذا العصر بين بعض الأمم والأفراد

أهمية كبيرة ، والواقع غير ذلك ؛ فالمجتمعات تتأثر بالدين وله تأثير قوى في النفوس ، والدين مادة غزيرة من الفلسفة والتقاليد والمعتقدات . ولقد وفق ابن خلدون بين الفلسفة والدين كما وفق ابن رشد بينهما

ويؤخذ على ابن خلدون في مقدمته إنحاؤه على العرب وقسوته في الحكم عليهم في كثير من سياسة الملك ؛ فقد غمطهم حقهم ، وشدد النكير عليهم ، فذم عليهم عجزهم عن التغلب إلا على البسائط ويقول : إنهم لا يتغلبون على قطر إلا أصابه الخراب المطلق ، فهم يهدمون الصروح ، ويفتصبون أملاك الغلوين مستشهدين بتخريب إفريقية الشمالية في القرن الخامس ، وأنهم يجهلون سياسة الملك . والتاريخ وحده أقوم دليل على دحض هذه المفتريات . ويبدو في كلامه هذا التحامل على العرب ، وإنه لعربى حضرمي ، ولكن ذلك راجع إلى العصبية المغربية ؛ فأهل المغرب لهم عواطفهم وتقاليدهم ، وهم قد خرجوا من سلطان العرب منذ القرن الثاني للهجرة .

أما تحامله على العرب ومجزمهم عن التغلب إلا على البسائط كسهول الشام والعراق ومصر وساحل إفريقية الشمالية فردود بمجاذب التاريخ فقد نسي ابن خلدون أو تناسى أنهم فتحوا فارس واستقروا هناك أكثر من قرنين ، وأنهم فتحوا بلاد الأندلس ، وأسسوا فيها حضارة وملكاً كبيراً استمر أكثر من ثمانية قرون

أما تخريب إفريقية الشمالية في القرن الخامس فلم يكن إلا بأمر الخليفة الفاطمي . ثم من هم العرب الذين فعلوا ذلك ؟ إنهم بدر أعراب لم يتكافؤوا تربية ولا نظاماً . ولنا شاهد من تأسيس حضارة العرب في فارس والشام وأسبانيا وإفريقية . ثم يقول : إن العرب ليسوا أهلاً لتأسيس الدولة إلا من طريق أثر ديني قوى ، وإنهم يجهلون سياسة الملك مع أنهم قبضوا على ناحية الحكم في الدولة الإسلامية في العصور الوسطى والحديثة وكانوا أقدر وأعدل وأمر ؛ فقد هيئوا للشعوب المغلوبة أسباب التقدم العقلي المادى . ويقول : إنهم بيبالفون في احتقار العلوم والفنون مستنداً إلى أن معظم العلماء فرس وموال . ولكن أينب عن ذهنه أن هؤلاء البدو فرضوا دينهم ولغتهم على دولتي الفرس والروم ؟ اللهم إنها العصبية المغربية تغلبت عليه !

والانتقال ؛ لذلك لم تكن المدن التي أسسها العرب في بدء الإسلام في العراق وأفريقية أهلاً للحضارة الثابتة ، وأن تقاوم صروف الزمن ، فقد زالت حينما سقطت دولها ؛ ولكن هذا الرأي مردود بأن الكوفة والبصرة لا زالتا موجودتين في عهد ابن خلدون . وعنده أن تقدم الحضارة يتوقف على مزايا الأرض ومزايا الحكومة وكثرة السكان ، فن الأرض تستخرج كل المواد الأولية ، والحكومة يجب أن تكون قوية عادلة كريمة ، وكذلك عمر الحضارة منوط بعمر الدولة لأن سقوطها يفرض على سقوط العاصمة ، ومن ثم تصاب الحضارة بضربة شديدة ؛ ولكن الحكومة الجديدة المتغلبة إذا كانت حازمة قوية استطاعت في الحال أن ترد إلى العاصمة كل رغبتها ، أما كثرة السكان فتخلق الحضارة ، وكلما كثر السكان كثرت المدنية وازداد الغنى واتسع المجال لتحقيق ثمار الترف !

ويرى ابن خلدون أن من أسباب ضعف الدولة انقراضها في الترف وضعف العصبية أو الحزب الذي أنشأها وما ينشأ عن هذا الضعف من مطالب بعض الجنود الأجانب الذين يتخذهم بعض الملوك لحمايتهم . ولا شك أن لفيلسوفنا آراء ومذاهب ونظريات يؤيدها العلم الحديث والعرف ، وما نراه في هذا العصر من قيام دولة وسقوط أخرى واختلاف الناس في مذاهب الحياة وفهم الأخلاق . وقد عنت أن أجلو أمام القارى بعض هذه الآراء تاركاً له فرصة الاستيعاب والتمحيص والموازنة الدقيقة .

والله ولي التوفيق

بجس محمد ناصر

المدرس بمدرسة الفيوم الثانوية

مصادر هذا المقال :

- ١ - فلسفة ابن خلدون الاجتماعية
- ٢ - ابن خلدون مؤرخ الحضارة العربي
- ٣ - ابن خلدون حياته وتراثه الفكري
- ٤ - مقدمة ابن خلدون - ترجمة الكاتب بقله

حكم في اللجنة رقم ٥٠٨ سنة ٤٢٠٠ عسكرية النيا بمجلة ٦٠٣-٦٤٢ بجس على عمر حسين جزار بندر النيا شهراً مع الشغل ليعه لما بأكثر من التسعة

حكم في اللجنة ٥٣٢ سنة ٩٤٢ عسكرية النيا بمجلة ٣-٦-٩٤٢ بجس محمد حسن عبد الناصر صاحب مخبز بني مزار ثلاثة شهور ليعه خبراً بأكثر من التسعة

وقد اعتبر ابن خلدون مؤرخاً لحضارة الدول الإسلامية ، فتحدث عن النظم السياسية وأنواع الحكم والخطط العامة ، كالقضاء ، والشرطة ، والإدارة ، وتطورها في الدول الإسلامية كما تحدث عن النظم الاقتصادية والتجارة والمكوس والضرائب ، وعن المهن الحرة والحرف والصناعات ، ووجه الكسب والمماش ثم عن العلوم والفنون والآداب وتطورها في العالم الإسلامي ، وإنما عالج هذه المسائل اعتقاداً منه أنها صور لهذا العمران ، ومراحل الحضارة مقياس لمراحل العمران

وقد أثرت في آرائه العلمية مبادئ «أرسطو» و«أفلاطون» وبخاصة الجمهورية لأفلاطون كما أثرت في آرائه فلسفة فيثاغورس الأفلاطونية ، وكما أثر فيها السمودي أيمس تأثير ، وقد استطاع أن يقرر منذ خمسة قرون أصل السلطتين الروحية والزمنية كما يقرها أسانذة القانون السيامي والديني

ويمكن أن توصف فلسفته بأنها يغلب عليها التشاؤم والتطير ، ولكن تشاؤمه تشاؤم رجل مستسلم غير مكثرت ، فهو لا يحكم وإنما يشاهد ، وهو بذلك يدل على ذهنية علمية . ويرى بعض المحترقين أن مصدر هذا انحطاط الدولة الإسلامية وتأخر الحضارة في العصر الذي كتب فيه ابن خلدون مقدمته ، وإلى الظروف السياسية التي تقلب فيها وعصفت به ، وما أصابه في حياته في خويصة نفسه من ألم وخيبة أمل وقد أوضح أهمية المال وبعد أثره في قوى الدولة الداخلية ، وذكر كيف يقضى سوء الإدارة المالية والإسراف دائماً على الدولة بالفناء

ومن رأيه أن تأسيس الدولة سابق على تأسيس المدن ، لأن الدولة وسيلة لتأسيس هذه المدن ؛ فالقبيلة لا تستطيع ذلك قبل أن تتخذ شكل الدولة المنظمة تجتمع قوتها في الحكومة ، فقد بنيت بغداد بأمر الخليفة المنصور ، وبنيت القسطنطينية والكوفة والبصرة بأمر الخليفة عمر بن الخطاب ، وابتنى القائد جوهر مدينة القاهرة تنفيذاً لأمر المزلدين الله الفاطمي ، ولحماية المدينة من الغارات تحاط بالأسوار الطبيعية والصناعية ، وتصلح صحة السكان بجودة الهواء وغزارة الماء . وقد بين أن العرب لم يحسنوا اختيار مواقع مدنها لأنهم يمتنون بالمرعى ، وأنهم يجهلون بأن للهواء صفات يجب اعتبارها ؛ لأنهم تعودوا حياة التجوال